مـــــدني صـــــالـح.. اســتـــــاذ جـيـل

تؤبن صفحة المدى الثقافي الاديب اللامع واستاذ الفلسفة في جامعة بغداد الاستاذ مدني صالح الذي فارقنا منذ ايام وتقدم لقرائها الكرام هاتين المقالتين اسهاماً منها في تأبينه واستذكاراً لحياته الحافلة المثقلة بالعطاء فهو استاذ جيل بحق.

المدى الثقافي

مـــدني صـــالـح .. جـــزء مـن صـــورة حـيـــاة

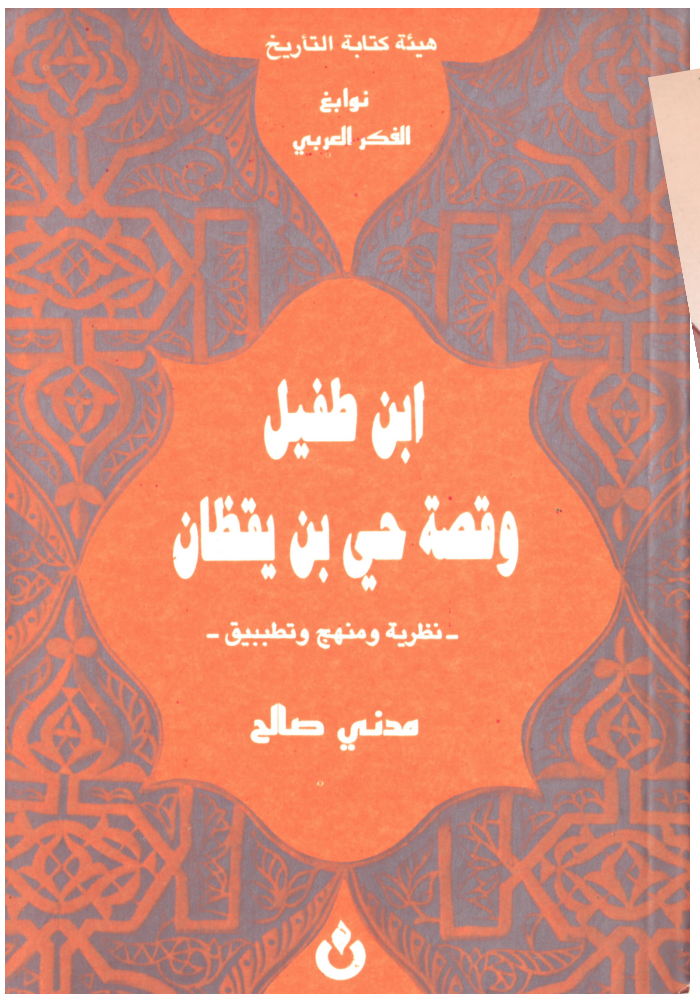

مـــدني صـــالـح

جمـــال كـــريم

لم يكن مدني صالح، منذ صرخته الاولى، صالحا لغير الفلسفة والمعرفة والادب والفكر وهذا ما حمله منذ صباه على القراءة الواعية، في الموروث العربي والانساني على حد سواء، وبخاصة في حقل الفلسفة الذي استهواه،كما يبدو منذ شرارة وعيه الاولى، لكنه في الوقت ذاته لم يكن بعيدا عن الادب، شعرا وسردا روائيا ومسرحيا فمزج بين الاثنين، مزج الماهر الحاذق فابدع فيهما من خلال المقالة والدراسة والبحث والدرس الاكاديمي الفلسفي الذي ظل حتى أيامه الاخيرة مخلصا له.

عرف عن الراحل بين طلبته وأصدقائه طوال مسيرته الاكاديمية والابداعية، ذلك الانسان الذي يفلسف المعاني والاشياء والحياة بجدية المحاور والمساجل والحكيم المتواضع، لا الاستاذ المتعالي أو المتشدق، بل مدني هو هو، هو هكذا في قاعة الدرس أو حين تلقاه في أروقة وممرات كلية الاداب في جامعة بغداد، وقل الشيء نفسه في روحه الفكهة ومزحه المفلسفة !.

كتب في الفلسفة الاسلامية والوجودية، قديمها وحديثها، وكتب المقامة والنقد الشعري، فكتب هذا هو السياب وهذا هو البياتي ومقالات ودراسات نقدية كثيرة نشرت في المجلات والدوريات العربية والعراقية منها،الانضواء تحت قبة سلطة ثقافة شاملة، واستدراج الى حرية اختيار الاغلال، وهو في كل ذلك، كان يعمل بصمت الفيلسوف الاديب، وتقشف الاديب الفيلسوف،وظل بعيدا عن كل المهرجانات –بضم الميم وكسر الراء المشددة–، فلم تغوه الاضواء، ولم تسل لعابه المنح والاعطيات التي تهافت عليها المتهافتون .

كان الراحل في آداب بغداد وفي درسها الفلسفي،انموذجا للاستاذ الامين في تداول المعرفة والثقافة والادب الجاد، محددا لطلبته بدقة عرف بها، المصادر والمرجعيات وهاديا اياهم الى ما يغني معارفهم في ميادين الادب والفكر والمعرفة والفلسفة، ومفسرا لهم من المصطلحات الفلسفية ما التبس منها على الفهم، وما غمض منها على الوضوح، فضلا عن ذلك، كان الصديق القريب اليهم بالعون والمساعدة، في هذه القضية أو تلك، فكان نهاية سبعينيات القرن الماضي، كفيلا لكل من ليس لديه كفيل من الطلاب والطالبات، حين كانت تمنح لهم سلفة قدرها مئة دينار!.

رحل المدني الصالح، بصمت، كما رحل الكثيرون من أعلامنا من الادباء والمفكرين والعلماء والفنانين،تاركين وراءهم خلودا يستحقونه بجدارة المنتصرين لمعاني الحياة في الفكر والمعرفة والحضارة .

باسم عبد الحميد حمودي

تمهيد اول

احسب ان وفاة العزيز مدني صالح منذ ايام قليلة كانت بدء حياة جديدة له، فالموت الجسدي نهاية صفحة وعمر والحياة المستمرة هي في استذكاره دوماً من قبل زملائه ومريديه وطلبته فلم يكن مدني صالح بفكره واسلوبه ولغته ظاهرة عابرة في الحياة الثقافية العراقية بل كان صاحب منهج ورسالة وان تجول في الكثير من حقول الابداع والنقد.

تمهيد ثان

كان مدني صالح مقالياً على الدراسة والمقالة، ويصنع من مقالته المرسلة ادباً من لون خاص فيه من الجاحظ المستطرد وفيه من الفارابي وفيه من ابن طفيل وفيه من سائر فلاسفة العرب والمسلمين اذ كان استاذ فلسفة درسها وعلمها طوال سنين جامعية وكان لابد ان تحوزه نارها التي اذكت كيانه وجعلته.. مدني صالح، دون سواه.

❖❖❖

ابدأ بعرض لبعض تفاصيل حياة الكاتب الذي فقدناه استناداً الى مذكراته هو التي صاغ بعضها في فصل بعنوان (البداية والتجديد) في كتابه (هذا هو السياب).

وفي التهميد الاول للفصل يقول مدني صالح "لم نسمع بالبياتي قبل عام ١٩٤٨ ولم نكن قد سمعنا بالسياب قبل مجيء هذا العام بالسياب الى الرمادي حاملاً ديوانه الاول "ازهار ذابلة" وكنا هناك فرأيناه وسمعناه يقرأ لنا من شعره وعرفناه وذلك يعني احتكاك مدني وهو طالب ثانوية بالسياب المدرس احتكاك اديب ناشئ بشاعر مجدد، ولكنه احتكاك متوجس فما زال مدني لا يؤمن يومها بالتجديد في حركة الشعر وهو يمهد لذلك بقوله واصفاً (قيادة) الحركة الجديدة.

"تنامت الى مداركنا اقوال حول حركة لتجديد الشعر العربي في بغداد.. وقالوا انها حركة تقودها امرأة ويقودها معها رجلان" ويلعب مدني صالح على اللغة والتراتبية فيكمل لكنهم "قالوا في رواية اخرى، انها حركة يقودها رجلان وتقودها معهم امرأة من النساء وآخرون اختلفت بشأن مراتبهم الاقوال" وهنا يتضح تطوره الفكري الحداثي واثر القديم المتضاد عنده مع الجديد.

يتضح تطور الفكر الحداثي واثر القديم المتضاد عنده مع الجديد فيقول بصراحة "وبدأنا نقرأ من اشعار هؤلاء قراءة المستطلع الراغب على كره ضد الراسخ المستقر في النفس من حب الماضي وعبادة القديم وتقديس السكون والثبات على الحال بلا حراك وكنا –شخصياً– من اعداء الجديد والتجديد في كل الميادين" لكنه يقول انه استأنس بشعر السياب والبياتي وكانا اقرب اليه من شعر الرصافي والزهاوي والبارودي وغيرهم وان لم يرقيا عنده –في حينه– الى شعر الجاهليين والفرزدق وجرير وابي العلاء والمتنبي ثم يردف –وهو يتحدث بصيغة الجمع– انه نزل الى بغداد عام ١٩٤٩ "نزول ات من اعالي الفرات –نزول عشاق لا نرضى بالقليل ولا نرضى بما دون النجوم ومفاليس من الجهة الاخرى" ثم بدأ يفهم السياب والبياتي ولكنه احب الجوامع واسواق الكتب وقاعات الدرس في كلية الاداب وفي وقت زاد فيه اهتمامه بالشاعرين.

وفي سنته الثانية في كلية الاداب عام ١٩٥٠ صدر ديوان (ملائكة وشياطين) فوجد هذا الشاب– الذي اصبح ناقداً فيلسوفاً– ان غرض التجديد في حركة الشعر يرمي الى اغراض متعددة منها "اعادة التوازن في الانسان ورده الى نفسه" والى تماسك حضاري من الداخل في الداخل ضد محدثات الخلل واسباب الارتباك" الاجتماعي والحياتي خلال ذلك قرأ مدني شعر جماعة ابولو وتوجهات جماعة الديوان والشعر الانكليزي الحديث واستمر مدني صالح في اطلاعه على الشاعرين وكتب عنهما افضل الدراسات الانطباعية لكنه اتجه في درسه الى الفلسفة فسافر في بعثة دراسية الى لندن لدراسة الماجستير والدكتوراه، فحصل على الاول بامتياز وفي ساعة مناقشة الدكتوراه بدر من مدني صالح المستفز دوماً ما اغضب اساتذته منه فلم يمنح (الورقة) التي منحت لاخرين ممن هم اقل منه واقل، لكنه عاد الى بغداد استاذاً للدرس الفلسفي وكتب فيه وعنه وكان من كتبه كتابه الممتع عن (ابن طفيل) وكتابه عن (الفارابي) ولكنه انصرف الى الادب والبحث وكتابة المقالة الاسبوعية الممتعة في شأن من الشؤون الثقافية في صحف العاصمة ووجد ما يجدد عنده شيئاً من فن المقامات فكتب "مقامات مدني صالح" وهي مقامات في النقد والفلسفة ومعالجة الامور الثقافية وهجا التخلف الفكري والعشائري بلغة استطرادية اشتهر بها مدني صالح دون سواه اذ صنع اسلوباً له لا ينافسه فيه احد ولا يجروء احد على تقليده او استنساخه.

وظل مدني صالح ملء السمع والبصر حتى اثقله المرض وزادت عليه اوجاع التسعينيات حتى فارق الحياة بصمت قبل ايام ولنا وللاجيال الطالعة جميل علمه ومعرفته وعطائه الفلسفي والنقدي.

قـبـلـــة الحـيـــاة الحـمـــراء .. تعـيـــد المـتـنـبـي الى الـثـقـــافـــة الـعـــراقـيـــة

نـــاجم المعـمـــوري

نشر الصديق الشاعر محمد درويش مقالة في ثقافية المدى بعنوان قبلة الحياة تعيد المتنبي الى الثقافة العراقية

يوميات عن شارع المتنبي في تواريخ عديدة واختار يوم ٣/٥ من ثلاث سنوات تنفس المقال حزنا شفافا وفاض حنينا على أيام كان فيها الشارع مكانا كرنفاليا واختار يوم الجمعة موعدا لطقسه الكتبي ولقاءات الأدباء والمثقفين. أثار المقال في نفسي وجعا وألما وشعورا بالفجيعة والخسران بسبب ما حصل له. وكان عنوان المقال أكثر إفضاء على التاريخ وانفتاحا على الأسطورة وكأن الصديق الشاعر محمد درويش يعرفها واستعان بها مستثمرا دلالتها برؤية معاصرة، مقترنة مع الشارع. والأصل الأسطوري أفريقي كما اعرف – واستثمرها القاص محمد احمد العلي في روايته قبل الفردوس – وتضمنت الأسطورة سردا عن إمكانيات اللون الأحمر وطاقته السحرية القادرة على التخليق واستعادة الحياة وتجديدها بانبعاث حيث تستطيع المرأة الأكثر قربا للمتوفى من ضبط زينتها جيدا وتلون شفتيها بالأحمر وتأتي الى المتوفي وتبدأ بطبع قبلاتها الحمراء، ابتداء بالقلب والأطراف، وكل جزء تقبله تترك عليه أثرا احمر وبعد دقيقة أو أكثر يعاود الجزء الميت حياته حتى يستعيد الجسد كله حيويته ويعاود نبضه شابا وقويا. تنطوي هذه الأسطورة على تمجيد للحياة واقتران لها مع المرأة أو الأم، لأنها هي المعنية بالخلق وظلت مسؤولة عن ذلك في مقاومتها للموت والاندثار، بمعنى حيازة الإنسان لخلوده الأبدي، ويبدو النسق المنتج لهذه الأسطورة نسقا ذكوريا مهيمنا في إنتاج الخطاب الثقافي والديني، كما تضمنت هذه الأسطورة إشارة ضمنية واضحة للعقيدة التي عرفها الرجل ومازال يعاني منها نفسيا وهي تميز المرأة عنه في الخلق والإنجاب، لذا حاول من اجل ذلك كما في اسطورة خلق المرأة من ضلع الرجل المعروفة في المرويات التوراتية والإسلامية وأيضا في أسطورة الآلهة أثينا من رأس الإله الإغريقي المعروف " زيوس". قبلة الحياة التي اختصرت هذه الأسطورة، مجازاً وطاقة رمزية ارتحلت من الأصل الأسطوري الى المقال المكتوب باتساع دلالي واضح، جعل من القبلة وسيطا إنسانياً / رمزياً أعاد العلاقة مع المكان المحترق / المندثر، القبلة تشف عن تفصيلات ثقافية / وحضارية وعلاقات اتصال مع الشواهد التي انطوى عليها شارع المتنبي ، والقبلة تبادل للوظائف الكلية التي اتصف بها تاريخ المكان بمراحله الاجتماعية / السياسية، اتصال الود والاعتراف للمتنبي الذي كرس وظائف المكان الثقافية وجعل من اسمه وخصائصه مكونات له، ساهمت بتكريس هذا الأنموذج الذي، استجمع كل ما اتفق عليه العراقيون في علاقاتهم مع الأمكنة وذاكرتها. لهذا تسلل إليه الإرهاب والموت، ساعيا لإيقاف الحياة فيه لكن قبلة محمد درويش المقترحة هي وسيلة الشاعر الرمزية لإحياء جديد وإيقاظ للذاكرة، هي الأسطورة العراقية الصاعدة / الوحيدة القادرة على توظيف قوتها السردية من اجل الشارع وحياته، التي مازالت كامنة في السواد والرماد. قبلة الحياة هي بعض من تخييلات الشاعر المفضية نحو اسطورة أخرى تؤدي وظيفة اليقظة والصحو المتناظرة مع اسطورة طائر الفينيق / السيمرغ الذي يحترق وسط عشه الفواح بالمر والبخور وأنواع العطور وكأنه بأسطورة الاحتراق يتعطر ويولد ثانية حاملا كل ذاكرته مرة ثانية أو السيمرغ الذي وظفه فريد الدين العطار في كتابه منطق الطير

قبلة الحياة المجازية تأخرت كثيرا ولا ادري هل وجدوا آلية إطلاق القبلة في الهواء، قبلة بشفتين متيبستين ببقايا النيران والتهابات الكتب أو حر بغداد الآن.. نحن بحاجة إلى قبلة الآن. اعني قبلة الحياة التي ينتظرها الشارع وعشاقه ومحمد درويش أولهم هذا الشارع الذي قادتني اليه قدماي في نهاية الستينيات ولم اختر مكانا لي غير الشابندر على الرغم من ان حسن عجمي وعارف أغا أوسع شهرة منها ووصلت الي اخبارهما، لكني اخترت الشابندر، مكانا التقي أصدقائي في بغداد والمحافظات. وفعلا انفتحت مقهى الشابندر، لاحتضاني والأصدقاء جهاد مجيد / فاضل الربيعي / محمد احمد العلي / إبراهيم احمد / نعمان مجيد / جاسم الناصر وشهدت لقاءات أسبوعية عديدة نناقش فيها مجموعتنا المشتركة والمرتقبة وعاشت الشابندر معنا كثيرا من أيام الجمع نناقش فيها نماذجنا القصصية ونختلف ونتفق وتعمق اختلافنا مع إبراهيم احمد / نعمان مجيد / جاسم الناصر وأعلنوا انسحابهم وكان إبراهيم ونعمان معنا حتى المحطة الأخيرة شهدت الشابندر اتفاقاتنا حول البيانات القصصية القصيرة التي عكست اهتمامات كل منا، وكنت أول القصاصين العراقيين اهتماما بالأسطورة وانشغالا بها منذ نهاية الستينيات ولأني اخترت نصا استثمرت فيه أسطورة الخصب والتجدد الزراعي وأخرى فيها اسطرة للبطولة السياسية، قررت تقديم بيان مركز حول الإمكانات الفنية الكامنة في الأسطورة وممكنات استثمارها في السرد والفنون الأخرى، واعتقد باني أول قاص اهتم بالأسطورة وأشار لممكنات توظيفها وظلت هذه الدعوة محدودة وغير مؤثرة حتى منتصف الثمانينيات حيث انفتح تماما الأستاذ حاتم الصكر على السرد الجديد الذي انشغل بالأسطورة أو اسطرة الواقع اليومي او تخليق المدن المتخيلة / الفاضلة، بحيث صار لعدد من القصاصين مدنهم الخاصة والفاضلة، ومنحتنا مقهى الشابندر شهادة ميلاد مجموعتنا " الشمس في الجهة اليسرى " حتى عنوانها مشاكس ويومئ لدلالة واضحة على الرغم من ان الصديق محمد احمد العلي لم يكن يساريا بل إسلاميا متنورا كما شهدت المقهى اختلافاتنا حول عدد من تصاميم الأغلفة واستقر الرأي أخيرا على تصميم أنجزه فنان شاب وغير معروف (محمد فهمي) من الحلة يعيش الآن مغتربا.

ستظل للشابندر ذاكرة حية، تستيقظ كثيرا، لأنها استمرت مكانا لي ولأصدقائي في بغداد والمحافظات، مكان المواعيد حتى عندما كانت حسن عجمي سيدة المقاهي، الشابندر هي التي جمعتني مع أصدقاء جدد تعرفت عليهم بعد التسعينيات سعيد عبد الهادي / حيدر سعيد / صفاء صنكور / وبعد استراحتي فيها اقصد مكتبات المتنبي وأرصفته، هذه المقهى قادتني إلى مكتبة الملائكي عدنان واشعر بان خسارتي باستشهاده مضاعفة، لأني تعرفت عليه حديثا وكان الصديق د.قيس الجنابي وسيطا بيننا الى ان التقيته، كما لازلت مفجوعا به كلما تذكرته وكانت فجيعتي قاسية عندما استلمت رسالة من د. قيس الجنابي وهو في معتقل بوكا يطلب مني إيداع رقم هاتف عدنان لدى زوجته. عدنان صديقي الذي كثيرا ما اتصل به هاتفيا وأسأله عن الجديد لديه، او يتصل مخبرا بسفرة له إلى دمشق فاطلب منه عددا من المصادر. تمكن القتلة من تدمير مكان وتاريخ وذاكرة، لكن لم يدركوا بان أمكنة مثل المتنبي او الشابندر ومكتباته ناهضة من رمادها. وفعلا عاودت نهوضها لأنها مازالت حية في الذاكرة التي تستعيدها وتمنحها حضورا وستظل حتما خالدة، لان قبلة الحياة آتية وستعيد الحركة للشارع وتجعل منه شارعا مختلفا عما كان عليه سابقا، ستجعله شاهدا على الهمجية والتوحش والبربرية التي حولت الكتب إلى رماد. لكنها لم تقدر على حرق صورة عدنان من ذاكرتي. يودعني الشارع بعد الغداء وأنا أحدق بالرصيف الذي يأخذني إلى باب المعظم حيث محطتي الأخرى عند صديقي احمد الشيخ علي ومن بعده كريم شغيدل ونتفق على لقاء في مقهى الجماهير لقاء موسع يتقاسم أرائكه كل من عبد الزهرة زكي وعلي بدر / قاسم محمد عباس / سهيل سامي نادر / جمال العميدي / حيدر سعيد / صفاء صنكور / ورعد عبد القادر / وكريم شغيدل / واحمد الشيخ. واظل محكوما بالعودة الى شارع المتنبي إليه مرة انا وجمال العميدي وحيدر سعيد حيث تمثال الرصافي الذي اختار ساحته مجاورا لأهم شاعر وأودع صديقي مساء واركب الباص عائدا وفي ذاكرتي كثير من الصور والأحاديث والحوارات وفي حقيبتي كتب ملونة بقلوب من أحب، سعيد عبد الهادي / كريم شغيدل / احمد الشيخ، واستعارات من حيدر..وصفاء.. أصل إلى بيتي متعبا. لكن ذاكرتي صاحية بمشاهد يوم ضاج بالشابندر والمتنبي وباب المعظم ومقهى الجماهير وصداقات ابتدأت ومازالت بيضاء مثل نصوصهم وكتاباتهم.